خليل السكاكيني: انعتاق التلميذ، عقلاً وروحاً وفكراً وجسداً

ناجح شاهين

السياق الفكري والاجتماعي

ولد السكاكيني في العام 1878 في أسرة أرثوذكسية مقدسية، ولذلك كان من الطبيعي في سن الدراسة أن يلتحق بمدرسة الروم الارثوذكس في القدس، لكنه تركها بسرعة لأن معلماً لطمه دون سبب.[1] وقد ظل السكاكيني معارضاً بشدة للضرب في المدارس وأشكال العقوبات المختلفة حتى آخر مشواره. وحينما افتتح الإنجليز مدرسة اسمها "الشباب" (سميت لاحقاً مدرسة صهيون) التحق بها، وتتلمذ هناك على نخلة زريق، ثم سافر إلى بريطانيا حيث درس اصول التربية والتعليم ومناهج الدراسة.[2] واشتغل بالتدريس منذ 1893 حتى العام 1907 عندما سافر إلى الولايات المتحدة التي كانت قد اشتهرت بصفتها البلاد الحلم. وهناك التقى فرح أنطون الذي يعد من أكبر مفكري النصف الأول من القرن العشرين، وهو صاحب المجلة المشهورة "الجامعة". ولكن السكاكيني لم يوفق إلى عمل، وعانى الفقر والغربة وضنك العيش، وقلة الحيلة، فعاد إلى الوطن في العام 1908. وفي هذه الفترة شكل الجمعية الأرثوذكسية التي كانت تهدف إلى إصلاح شؤون الطائفة وترفع الظلم عن العرب الأرثوذكس. كذلك دخل معترك السياسة وتفاعل مع الواقع السياسي فانتمى إلى "جمعية الاتحاد والترقي" ثم تركها بعد أن اكتشف بؤس أهدافها، وتحمس لثورة الحسين بن علي وكتب في ذلك شعراً مطلعه:

أيها الملك العظيم جد كل العرب

ملكلك الملك الفخيم ملك جدك النبي[3]

وقد تحولت القصيدة السابقة إلى نشيد للثورة على الأتراك. سجنته الحكومة التركية ابان الحرب الأولى في دمشق لبعض الوقت وأطلق سراحه في العام 1918 ليعود في العام التالي إلى القدس، وقد غدت تحت الانتداب الانجليزي. وفي هذه اللحظة يتبنى السكاكيني بوضوح أفكار النهضة والدعوة للتحرر، فيقول: "إن هذه الأيام هي أهم أيام فلسطين التاريخية، ولذلك يجب أن نغتنم الفرصة فنهز الأمة هزاً عنيفاً، لعلها تستيقظ من سباتها، ونعمل على جمع الكلمة وتوحيد الآراء، يجب أن نجدد شباب الأمة ونبعث آمالها."[4] وفي سبيل الوصول إلى تلك الغاية دعا السكاكيني في ذلك الوقت المبكر إلى "فكرة الجامعة العربية" التي يذهب إلى الزعم أنه هو صاحب فكرتها وداعيتها الأول. ثم نشط في دعوة الشباب إلى الثورة، ولكنه انتقل إلى مصر في العام 1920 حيث سيلتقي برجال الفكر من قبيل مصطفى عبد الرازق وأحمد زكي وأمين الريحاني. وقد دعي لإلقاء المحاضرات أكثر من مرة في الجامعة المصرية وفي الجامعة الأمريكية في بيروت. وعمل مفتشاً عاماً للغة العربية في فلسطين في العام 1926 وهي الفترة التي شهدت تأليفه كتابه "الجديد في اللغة العربية"[5] الذي قرأ جزأه الأول في المدارس أبناء جيلي ومن سبقهم من أجيال لفترة طويلة، (أعني كتاب راس، روس، دار، دور). وقد منح مجمع اللغة العربية في القاهرة هذا الكتاب بعد نصف قرن من تأليفه وربع قرن من وفاة مؤلفه جائزة أفضل كتاب ألف لتعليم اللغة العربية للصغار، وكان ذلك في العام 1971.[6] ويعتمد أسلوب السكاكيني في الكتاب على الانطلاق من الكلمة إلى الحرف إذ يبدأ التلميذ بالتعرف إلى الكلمة ثم يحللها بمساعدة المدرس إلى الحروف المكونة لها. وقد استمر استخدام هذا الكتاب زهاء خمسين عاماً. ويصر بعض الذين قرأوا العربية باستخدام "راس، روس" أنه أكفأ من الكتب التي ظهرت من بعده جميعاً.

في العام 1935 عمل السكاكيني مديراً للقسم العربي بإذاعة فلسطين، ولكنه استقال بعد وقت قصير عندما سمع المذيع يتحدث عن "أرض إسرائيل". واكب الثورة في العام 36 وكتب

محرضاً ومبشراً بها. وفي العام 1938 وهو في الستين من العمر أسس مدرسة النهضة التي تستمر في العمل حتى العام 48. وكان في القاهرة عندما تم تطهير فلسطين وطرد معظم سكانها، فاستقر هناك حتى وفاته في العام 1953.[7]

عاش خليل السكاكيني بين 1878 و 1953. وهذا يعني أنه ابن المرحلة التي شهدت ما يعرف خطأ في تاريخنا المعاصر باسم فكر النهضة. كان الإيمان بالتقدم ما يزال هو السائد على نحو واسع. وكان الفكر الليبرالي الأصيل ما يزال ممكناً ومخلصاً. وكان فكر النشوء والارتقاء والتيارات الداروينية النقية أو الداروينية النتشوية تملأ الفضاء الفكري في المشرق كله بما في ذلك مصر والشام وبدرجة ثانية العراق.

تشرب السكاكيني مثل هذه المرحلة ومبادئها الرئيسة، وتفاعل معها بإخلاص وحيوية ونشاط مؤمناً بطاقة الإنسان وحريته وقدرته على التفتح، ومؤمناً أيضاً بمبدأ القوة الذي لا يتناقض جوهرياً مع فكرة التقدم والإبداع، بل لعله يكملها فلسفياً على نحو بيولوجي يجعل الغاية من الوجود الاتجاه نحو مزيد من الارتقاء باتجاه الإنسان الأعلى مثلما أوضح نيتشة وكذلك هـ.ج. ويلز وصولاً إلى مفكر ومسرحي اشتراكي فابي يفيض انسانية وميلاً للعدالة هو برنارد شو. كانت الفكرة الشائعة تقول: "ما هو القرد بالنسبة للإنسان؟ إنه مجرد أضحوكة. هكذا سيكون الإنسان بالنسبة للإنسان الأعلى، مجرد أضحوكة." إذن كانت فكرة "السوبرمان" أساسية في اللوحة، ولم يكن السكاكيني بعيداً عن الفكرة بتكوينه الروحي والجسدي القوي والنشط. كما أنه تلقف دون شك الأفكار التحررية والعملية التي كانت تسود في أمريكا بما فيها أفكار جون ديوي.

لدى خليل السكاكيني روح وثابة مفعمة بالرغبة في التحليق مستلهماً النموذج الأوروبي المنفتح على العلم والتحرر الذي كان يسود العالم، والمستند إلى عقلانية القرون الحديثة التي لم

تكن قد دخلت بعد مرحلة الأزمة. بالعكس كان هناك الوجه الآخر لتلك العقلانية ممثلاً في التقاليد الاشتراكية المزدهرة في القرن التاسع عشر ثم العشرين، وإن كانت هذه التقاليد لم تصل على نحو كاف للسكاكيني لأسباب قد لا تكون صعبة على الحدس.

عمل السكاكيني مع فرح أنطون الذي يعد، مثلما أشرنا أعلاه، واحداً من كبار مفكري التنوير، بل ربما كان أكبر المفكرين خصوصاً عندما يتصل الأمر بقدرته على إثارة الجدل والنقاش في الحيز العام بفضل مع محمد عبده المتصل ب "الإسلام والنصرانية مع العلم والمدنية". وهو الحوار الذي انتهى بضيق صدر المجتمع المصري بعد سنين من سعته، واضطرار فرح أنطون صاحب كتاب "ابن رشد والرشدية" إلى مغادرة مصر والاستقرار في باريس. كان ذلك أول هزيمة صريحة للتنوير في القرن العشرين. لكن السكاكيني في الأحوال كلها لن يعيش عصر الرؤى الوثوقية المطلقة التي تحل في عصر التحرير في الخمسينيات، وما يرافقها من إقصاء صريح للآخر مع تسليم بالحزب او البطل الذي لا يخطئ. كان ذلك زمناً جديداً أصبح فيه ناصر أو البعث أو الوهابية صروحاً لا يأتيها الباطل من بين يديها أو من خلفها، ومن الممتنع حكماً أن يتم نقدها. وفي هذا السياق توقف نمو العقل الناقد التعددي الليبرالي وحل محله تدين وثوقي شديد التعصب وإن تزيا بزي القومية أو الاشتراكية أو غيرهما.

مواقفه الفكرية الاجتماعية

كان السكاكيني ميالاً إلى التسامح وفكر المساواة. ومن ذلك موقفه من المرأة التي كان يراها مساوية للرجل. وفي هذا السياق يتبنى مواقف نزيهة حازمة تطالب بالمعاملة المتساوية. فهو يرى أن ما يطلب من المرأة يجب أن يطلب من الرجل: "أيها الرجال الكرام، إذا اشترطتم على النساء أن يكن شريفات قبل الزواج وبعده فالإنصاف يتقاضاكم ان تكونوا شرفاء قبل الزواج وبعده ايضاً."[8] وكان له آراء مميزة طريفة فيما يخص السجن والسجناء، فانتقد الفكرة

التي ترى في السجن مكاناً للقصاص والانتقام من "المخطئين". واعتقد بأن وراء الجريمة أسباباً اجتماعية يجب العمل على إزالتها. وهذا يعكس الوعي بأن الإنسان خير أساساً ولكن النظام الاجتماعي بقسوته هو الذي يخلق الجريمة. يقول في هذا السياق: "السجن اسلوب قديم يجب الإقلاع عنه، والمجرمون لم يعودوا في نظر علماء النفس مجرمين بل مرضى، ويجب إلغاء السجون واعتماد طريقة أخرى منطبقة على العلم الحديث. السجون لا تقلل أعمال الإجرام في العالم بل تزيدها، السجون لا تصلح السجين بل تفسده، ولا سيما إذا كان حدثاً، فبدلاً من الاهتمام بالإجرام يجب الاهتمام بالأسباب، أزيلوا الأسباب، فيزول الإجرام."[9] ويروى في هذا السياق أن السكاكيني قد علق بمرح عندما بلغه وهو في القاهرة نبأ سرقة بيته أن اللصوص ما كانوا ليسرقوا بيته لو لم تضطرهم الحاجة، وأنه يتمنى أنهم قد وجدوا حاجتهم هناك.[10] ولعل هذا الموقف المتسامح مع من يخالفون القانون يحمل دلالة حاسمة على نوعية الحياة التي حلم بها للتلاميذ، ومن حقنا أن نستبق الأمور ونتوقع أن يكون مهووساً بتقديم تعليم يهدف إلى إسعاد التلاميذ في أكثر الأجواء محبة وتسامحاً.

وقد وقف هذا الإنسان المتمرد على الماضي والسلطة معاً موقفاً مميزاً من المؤسسة الدينية الأرثوذكسية. وإذا كان قد بدأ حياته المدرسية بطلاق المدرسة الأرثوذكسية التي تسمح بامتهان الطفل وإنسانيته عن طريق الضرب، فقد توج حياته بطلاق المؤسسة الدينية حد الإعلان أنه ما عاد أرثوذكسياً أبداً.

ناضل من خلال الجمعية الأرثوذكسية، والمجلس الملي الأرثوذكسي ضد تسلط اليونان –الذي ما يزال قائماً– على العرب من أعضاء هذه الطائفة. وقد أوضح أن غايته دون مواربة هي: "خلع نير اليونان؛ إذ لا حق لهم في الرئاسة لا كنسياً ولا سياسياً ولا أدبياً."[11] وقد نشط السكاكيني من أجل تحقيق هذا الهدف واشتدت المواجهة بين الكهنة العرب ورجال الدين اليونان

عندما حاول البطريرك اليوناني الزام الكهنة العرب بالصلاة في الكنائس، وقد ساهم الضغط التركي في هذه الفترة (حوالي 1908–1913) في أن يتنازل العرب عن مطالبهم. وهو ما دفع السكاكيني إلى الإعلان:"لا أستطيع أن أكون في الملة الأرثوذكسية بعد اليوم، لا أستطيع أن أكون تحت رئاسة هؤلاء الرهبان الفاسدين المنحطين، ولا من تلك الملة المنحطة، هو ذا قد أكملت عملي فيجب أن أقطع كل علاقة لي مع الكنيسة الأرثوذكسية...لست أرثوذكسياً بعد اليوم."[12]يكاد هذا النص يضاهي في قوته وغليان روح صاحبه، نصوص الرازي في "مخاريق الأنبياء" أو نصوص فولتير الحادة في نقد الكتاب المقدس، خصوصاً عهده القديم.

والصحيح أن روح الرجل الوثابة والنازعة إلى الجوانب الحية العملية تدفعه إلى الدعوة إلى التبسيط وعدم الإغراق في النزاعات العقائدية التي لا طائل تحتها. يقول في نص "أبوي" لطيف عن ابنتيه: "أن أمشي معهما آخذ هذه بيد والأخرى بيد على طريق القطمون فأداعبهما وتداعباني خير ألف مرة من أن تكونا في السماء مع المسيح ومار بطرس والملائكة. ليذهب إلى السماء من شاء وأما نحن فإننا نحب أن نعيش على هذه الأرض فنجعل منها سماء."[13]وبحسب بعض النصوص فإن السكاكيني –وهو ما قد يثير الدهشة لو كان مفكراً غيره– قد دعا المسيحيين إلى اعتناق الاسلام حتى يصبح العرب كلهم مسلمون ويصبح الأجانب مسيحيون أو ديانات أخرى، وهكذا لا يعود هناك من التباس بين العربي المسيحي والأجنبي المسيحي. وإذا صحت النصوص المنسوبة إلى السكاكيني في هذا المضمار فإن قطيعته مع الأرثوذكسية كانت من الحدة والحسم بحيث قادت إلى دعوة المسيحيين جميعاً إلى ترك المسيحية واعتناق الإسلام.[14] ربما أن جزءاً من هذه الدعوة قد جاء بسبب الغضب من ممارسات الإكليروس اليوناني، ولكن لا شك أن جزءاً منها ينبع من حرصه على الأمة العربية ونهضتها واستقلالها.

وفي سياق السياسة اندغم السكاكيني بهموم امته، ولكنه كان يعلي من شأن الفرد، ويرى في استقلاله وقيامه بذاته خير نموذج للاستقلال،[15] وهو ما ينعكس بالتالي على فكره التربوي احتراماً لفردية التلميذ واستقلاله ونمو شخصيته في المجالات المختلفة على أفضل ما يكون.

فكر السكاكيني التربوي:

هالنا بالفعل أنه على الرغم من آلاف الدراسات التربوية ودراسات الفكر والسيرة التي قامت جامعاتنا المحلية وتقوم بإنتاجها منذ عقود، إلا أنه لا يوجد عمل واحد جاد ورصين ومتكامل يغطي فكر السكاكيني عموماً أو فكره التربوي خاصة. والصحيح أننا لا نعرف لذلك سبباً. ولا بد أن ذلك يجب أن يكون محط بحث خاص لمعرفة سبب الإحجام عن دراسة رجل بأهمية السكاكيني في سياق شعب أو مجتمع لم ينجب الكثير من المفكرين قياساً على غزارة الشعراء –نسبياً–والروائيين على سبيل المثال. على الرغم من ذلك نستطيع أن نلمح العديد من الدراسات التي تناولت غسان كنفاني أو محمود درويش أو عبد الرحيم محمود، وحتى شاعر بوزن قليل مثل صخر حبش لم يعدم من يكتب عنه دراسة طويلة تتناول تجربته الشعرية. السكاكيني لم يدرس دراسة عميقة منهجية أكاديمية على أي نحو. ولذلك تظل تصوراتنا محدودة عن مصادره المعرفية، خصوصاً في مضمار التربية. لكننا نعرف عموماً أنه اطلع على برجماتية جون ديوي واتجاهه العملي، وفردية/عقلانية برتراند رسل، واحترام روسو وبستالوتزي للطفل وحريته وسعادته. وهذا كله يؤثر في موقف السكاكيني الذي لا يتعب من تكرار الحاجة إلى جعل التعليم منصباً على حب الطفل، وجعل المدرسة أشبه بالأسرة المتحابة. وعلى الرغم من ذلك فإننا لا نعرف تفاصيل الموقف الفكري للسكاكيني بوضوح كامل. والسبب مثلما أسلفنا أن جهداً خاصاً منظماً لم يعط لقراءة إنتاج السكاكيني وسيرته، على الرغم من وجود المادة

الغزيرة. ولذلك سنسعى إلى رسم الملامح الأساس لفكر السكاكيني بالقدر الذي يسمح به الموقف.

لعل جوهر "تنظير" الرجل يقوم على التركيز على الطريقة بدلاً من المحتوى. وفي هذا السياق ركز السكاكيني على عمليات التفكير وعلى دور الطالب في التعلم، وعلى نموه في المجالات المختلفة وفرحته وسعادته، بعيداً عن القمع وبعيداً عن الامتحانات ورهبتها وعن الرقابة على الطلبة. كان المهم هو بث الدافع الذي يقوي الهمة ويقود إلى طالب حر قوي أخلاقي ومنسجم داخلياً. ذلك يعني التكامل بين الأشياء وعدم عزلها، وفي التطبيق اقترح في ذلك الوقت المبكر من بداية القرن العشرين أن اللغة يجب أن تدرس في المواضيع المختلفة. ليس المطلوب الالتزام بالتعليم باستخدام اللغة العربية فحسب، **ولكن كل معلم من معلمي المواد الأخرى على اختلافها يجب أن يكون معلماً للغة العربية في الوقت ذاته.**[16] وهذا الاتجاه لتكوين عقل تكاملي يقظ ينسجم مع "الغرض الأول من التعليم" عند السكاكيني والذي يتمثل في "خلق نوع جديد من البشر يحكمون عقلهم في كل أمر."[17]والواقع أن السكاكيني يمضي في فكرته عن تدريب الطلاب لكي يستخدموا العقل بعيداً جداً باتجاه لا يخطر ببال المؤسسة التعليمية الحالية أبداً. باختصار نسأل من الذي يعمل اليوم، في المدرسة أو الجامعة، وهو يفكر في أنه يعد علماء أو أدباء مبدعين؟ نظن أن الإجابة واضحة بذاتها. أما السكاكيني، ربما لأنه كان مبدعاً، من بين أشياء أخرى، يؤكد صراحة على تلك الغاية البعيدة المنال: "نعلم طلابنا التاريخ لا ليعرفوا التاريخ ولكن ليكونوا مؤرخين، نعلمهم الأدب لا ليعرفوا أصول الأدب، ولكن ليكونوا أدباء. نعلمهم اللغة لا ليعرفوا اللغة، ولكن لينزلوا منها منزلة أهلها. ونعلمهم الرياضيات لتكون لهم أدمغة رياضية....الخ"[18] ومن أجل ذلك مارس السكاكيني التعليم الناقد الذي يتطلب من التلميذ ربط الظواهر وتفسيرها ونقل التجربة المكتسبة إلى نطاق آخر وغير

ذلك. وهناك حوادث يرويها عن طريقته تثير الاهتمام بالفعل. من ذلك أنه بعد أن قرأ مع الطلاب بيت الشعر:

إذا كان اولاد الرجال حزازة فأنت الحلال الحلو والبارد العذب

ثم قال لهم إن كلمة بارد في آخر البيت لا تعجبني، هل يمكن أن نفكر في كلمة تكون موازية في المعنى ولكنها أجمل؟ فقام أحد التلاميذ واقترح أن تستبدلها كلمة "الرائق"[19]. وهذا عمل مميز لا يقوم به المدرسون في زمننا حتى اليوم. وهو عمل يشجع التلميذ على الابتكار، وينزع منه الرهبة والتقديس تجاه النص، كما يشعر أنه حر في مواجهة النص وليس عبداً تابعاً له لا يستطيع إلا أن يقول: "الألفاظ جزلة والتراكيب متينة،" مثلما يحدث في التعليم حتى في زماننا وبعد قرن من السكاكيني.

تصورات السكاكيني التربوية والمدرسية:

انطلاقاً من فهمه للتعليم وروحه المنفتحة التواقة للاستقلال والتفكير المنطقي والابداعي اقترح خليل السكاكيني بعضاً من الأفكار التي تهدف إلى بناء نوع من التعليم الذي لم يكن شائعاً في زمانه في بلادنا، وإن كان هو الأساس في الفكر الأوروبي الذي كان يسود العالم وكان ما يزال يبشر بالعقل والحداثة والحرية الفردية.

ويمكن لنا أن نتتبع من خلال كلام السكاكيني الملامح التالية:

1. الشك الإيجابي المنهجي على الطريقة الديكارتية. يقول السكاكيني: "مدرستنا لا تتقيد برأي أحد، ولا تقبل الرأي إلا بعد أن تضعه تحت البحث، فهي لا ترى في العلم تنزيلاً، ولا تراعي في الحق خليلاً."[20] كأننا نقرأ ديكارت "رسالة حول المنهج" اذ

يقول: "إننا لا نقبل رأياً إلا بعد أن نفحصه فحصاً دقيقاً وكافياً." وهو ما يعبر عن استدخال السكاكيني العميق لروح فلسفة الحداثة.

2. احترام فردية التلميذ وكرامته وشخصيته، وحريته، ونموه ليصبح شخصاً حراً حقاً وذلك لا يتحقق إلا إذا كان التلميذ على مقاعد الدراسة حراً بالفعل.[21]
3. يجب على المدرسة أن تعزز من علاقة التلاميذ بالطبيعة. وهذا ما كانت تفعله المدرسة الدستورية التي كان يقودها السكاكيني بنفسه. ولذلك لا بد من ممارسة "السياحة" الداخلية بغرض التعرف إلى البلاد، وكذلك لا بد من الخروج إلى الطبيعة: زيارة الحقول، وتسلق الجبال لما في ذلك من فوائد تتصل باكتساب الصحة والنشاط و"إحياء عاطفة السرور" لدى التلاميذ على حد تعبيره.
4. الاهتمام بالألعاب الرياضية. وكان السكاكيني ينوي إدخال الملاكمة والمصارعة واستعمال السلاح في برامج المدرسة التعليمية. لأن التعليم لا يكتمل بدون بناء الجسد القوي الصحيح. لنتذكر في هذا السياق أن حصة الرياضة اليتيمة في مدرستنا الفلسطينية المعاصرة والتي يجمع الطلاب على حبها، غالباً ما يتم التخلص منها لسبب أو لآخر. من بعض النواحي يشبه توجه السكاكيني توجه أفلاطون التربوي الذي كان يصر على أن "المعرفة" كل متكامل، ومنه انبثق القول الشهير "العقل السليم في الجسم السليم". وكان أفلاطون يصر على أن البداية هي الرياضة بأنواعها التي يشترك فيها الأطفال من الجنسين وهم عراة ويستمرون فيها حتى الثامنة عشرة بحيث يتمكنون من بناء الصحة الجسدية الضرورية، وكذلك يطورون حساً "طبيعيا" تجاه الجسد الإنساني الإنثوي والذكري خالياً من الأوهام والمبالغات أو الاتجاهات التي ترى في الجسد شيئا معيباً لا بد من تغطيته. وفي هذا السياق نذكر أن مدرسة السكاكيني كانت مدرسة مختلطة ولا تميز بين الجنسين في شيء.

5. إعطاء الفرصة الكاملة للطلبة لكي يطوروا مهاراتهم المختلفة وليس الأكاديمية فقط. وهذا ينسجم مع رؤية التلميذ إنساناً وكائناً اجتماعياً ومواطناً لا بد من إعداده لأخذ دوره الكامل المتكامل في الحياة والمجتمع. ولذلك يقول السكاكيني:"منذ توليت إدارة المدرسة لم أكف عن بث روحي في الطلبة. أطلقت الحرية، كبرت النفوس، أنهضت الهمم، وسعت الآمال، قويت الإدراك، **عودت التلاميذ أن يحكموا أنفسهم بأنفسهم.** أنشأت لهم جمعية للمحاضرة، وإلقاء القصائد كانت تنعقد بعد ظهر يوم الخميس من كل أسبوع. **أنشأت لهم مجلة نصف شهرية باسم الجوزاء كان التلاميذ يتولون كتابتها بأنفسسهم. أنشأت لهم جمعية إصلاحية وكلت عليها حل المشاكل التي تقع في المدرسة بدون أن يتداخل فيها أحد من الأساتذة.**"[22]

مدهش فيما نحسب هذا التفكير الواضح الذي يعبر باستقامة عن دور الطلبة الفعلي والحقيقي في اتخاذ القرار وتنفيذه، بما في ذلك القيام بإدارة مجلة وإنتاج موادها، بل الفكرة الطموحة التي تصل حد إدارة الصراعات والمشاكل التي تستقطب الكثير من وقت المعلم والإداري في مدارسنا، وقد تعد العقبة الكأداء في وجه المعلم والنظام التعليمي المدرسي بأسره. وهذا المنهج لا يؤدي فقط إلى تمرين الطلبة على إدارة الصراعات الواقعية، ومحاكمة الوقائع الحياتية، ولكنه يعمق قدرة الطلبة على التفكير العقلاني والمنطقي في المواقف الفعلية المتشابكة والمعقدة مما يسمح بالمرونة في العقل وبنية التفكير ويصقل مهارات التفكير والاستدلال والاستنتاج والحوار.

6. الالتزام بالمعطيات العلمية–العلمانية بعيداً عن تأثير الدين. وبهذا المعنى فإن الدين لا يجوز أن يتدخل في العلم. وفي هذا السياق نود أن نذكر أن كثيراً من جامعات الوطن ومدارسه تشهد تطوع مدرسي مادة الأحياء لشن حملة من عند أنفسهم ضد نظرية التطور ورموزها وعلى رأسهم المؤسس داروين، بوصفها نظرية كاذبة، إنما

وجدت من أجل أن تقوض أركان الدين وتنشر الكفر والإلحاد. وهذا يحدث للمفارقة المحزنة بعد مضي قرابة قرن من الزمان على موقف السكاكيني الذي يقول حرفياً عن دور العلم من مدارس وجامعات: "أن يكون التعليم فيها مجرداً عن كل تأثير ديني أو جنسي [=قومي] أو سياسي. أي يجب أن تكون المدارس أمينة للعلم، وإذا لم يكن بد من التعليم الديني فليعلم كل تلميذ أصول مذهبه بشرط أن نختار أساتذة الدين من خيرة الناس وأفاضلهم لا أن نتركهم وشأنهم لئلا يكون تعليمهم عبارة عن سخافات تضلل العقول وتفسد العقائد الوطنية وتنشئ تعصباً ذميماً وتولد في النفوس كره المدنية واحتقار المذاهب العلمية."[23]

7. إن هدف التعليم النهائي "المقصود من التعليم" هو "توسيع المدارك وتقوية العقل" وليس "حشوه بعلوم الأولين والآخرين" وهو ما يؤدي بحسب السكاكيني إلى امتلائه مع بقائه "صغيرا" على حد تعبيره. نعم. إن الحفظ الصم الذي ينتقده الرجل يقود إلى تحويل الناس إلى آلات صماء تحفظ المعطيات والمعلومات دون أن تفقه شيئاً، أو دون أن يتشكل هناك نواة عاقلة مفكرة. كأننا في مواجهة شريط تسجيل أو قرص حاسوب أو "هارد ديسك" متنقل يحتوي أكوام من نتف المعلومات التي لا تعني له شيئاً، وإنما يمكن أن يستخدمها عقل ما في إنتاج المعرفة. حشو الرأس "بعلوم الأولين والاخرين" ليس هو المعرفة العاقلة بحسب المربي الفلسطيني الأول.
8. يظل النموذج الكوني الإنسانوي الذي ارسته الثورة الفرنسية مهيمناً في مخيال الحقبة ومخيال السكاكيني. ولذلك يؤكد الرجل أن المدرسة يجب أن "لا تنتمي إلى طائفة دون أخرى، ولا إلى طبقة من الناس دون طبقة، ولكنها للجميع." ويتحدث خليل السكاكيني صراحة عن مدارس أوروبا التي تمثل النموذج الذي يجب أن نحتذيه.

9. من نافلة القول إن مهمة التعليم يجب أن تلقى على عاتق "الطبقة الراقية من الأمة من أصحاب النفوس الكبيرة والهمم العالية والوطنية الصادقة والأخلاق الفاضلة." لا بد أن المواطن العربي والفلسطيني المعاصر سيبتسم عند قراءة هذا الوصف، لأن التعليم أصبح على ما يبدو مهنة مثيرة للشفقة لا يتقدم نحوها إلا من يفشل في أن يحصل على أي شيء آخر.

10. وهناك موقف مذهل في جرأته إلى حد بعيد. ذلك هو أن المدرسة التي كان يديرها السكاكيني لم يكن يهمها أمر الشهادات من قريب أو بعيد. بل إن المدرسة "السكاكينية" مستعدة أن تقبل أي طالب حتى لو كان مطروداً من مدرسة أخرى، "لأنها لا تثق بالشهادات، بل ترجح أن العيوب التي قد تنسب لهم [=للطلاب] ليست عيوباً، وإنها قد تكون عيوب المدرسة." وفي هذا السياق يؤكد السكاكيني على أهمية المعاملة الأخلاقية للتلميذ، المعاملة التي تحترمه وتحترم إنسانيته ولا تتصيد عيوبه، وذلك ما يؤدي إلى أن يكون شخصاً وإنساناً رائعاً.[24]

11. ويتصاعد موقف السكاكيني وصولاً إلى القول بعدم تقيد المدرسة بنظام الحضور والغياب، فمن يشاء من الطلبة أن يحضر حضر، ومن شاء الغياب غاب. لأن القاعدة أن نعمل على جذب الطلاب إلى المدرسة بحيث يحس الطالب برغبة طبيعية في الحضور.

لا شك أن هذا طموح مذهل، وإن كان قد طبق بالفعل فهو مثال لا نظير له علينا أن نركض بكل قوتنا لنلحق به نحن الذين حولنا المدارس إلى معتقلات ودكاكين للملل بكل معاني الكلمة. إنه تحرير لنفسية الطالب من ناحية، وإنجاز عظيم على صعيد الاعتماد على تكوين دافعية أصيلة وعميقة تجعل الطالب مندفعاً إلى المدرسة حريصاً عليها حباً بها، لا خوفاً ولا طمعاً. نظن أن السكاكيني كان رومانسياً شيئاً

ما. ولولا أنني أعرف مدارس في عالمنا الواقعي يحرص التلاميذ فيها على الحضور ويصابون بالحزن عندما يغيبون مضطرين لقلت إن الرجل حالم مجنون.

12. المدرسة "السكاكينية" ليست مكان دراسة وتدريبات أخلاقية (=تربية وتعليم) فحسب، وإنما هي مكان لبناء الإنسان الحر المستقل المفكر والأخلاقي حيث يتدرب التلاميذ على حل مشاكلهم بأنفسهم ويتحاورون ويفكرون ويستخدمون عقولهم في مواجهة ظروف الحياة المختلفة.[25]

13. اقترح السكاكيني ما يعرف بالطريقة الخلدونية في تعليم اللغة والتي تنطلق من الشاهد إلى الاستعمال دون المرور بالقواعد الجافة بغرض حفظها. وفي هذا السياق يؤكد السكايكيني على فصاحة المعلم وجمال النص وكثرة الاستخدام من أجل تكوين الملكة في مقابل الطريقة التي تقوم على استظهار القواعد في ذاتها وبذاتها بعيداً عن التطبيق.[26] ونظن أن طريقة حفظ القواعد الميتة هي التي تستخدم حتى اللحظة. ولا تقود بالطبع إلى أي توظيف حي للغة، وإنما تحفظ مؤقتاً بغرض إجابة الامتحان ثم تذهب في حال سبيلها.

ويؤكد السكاكيني على أن أهم جانب في تعليم اللغة هو أن نتمكن من غرس محبة اللغة العربية في نفوس الطلاب مبيناً كيف أن الفرنسية والإنجليزية تقرأ في جو من الرغبة والاهتمام الأصيل. ومن ناحية أخرى بين الرجل أن الوصول إلى وضع تختفي فيه صعوبات اللغة نهائياً هو وهم كامل، لأن اللغة ستظل صعبة بطبيعتها، ولكن المهم كيف نجعل الطالب يجد "اللذة" في مواجهة تلك الصعاب اللغوية والتغلب عليها.[27] وبهذا المعنى فإن السكاكيني يوجه إلى أن من الممكن أن يكون هناك متعة حقيقية في الفنون والعلوم الراقية والصعبة بحيث لا تقتصر البهجة والمتعة على السهل الفج والمبتذل.

14. ولعل من أجمل مواقف السكاكيني التربوية هو موقفه من مهنة التعليم. فهو يجدها أجمل مهنة، إلى درجة أنه يعدها مصدراً للسعادة والنشوة. يقول: "على أن صناعة التعليم [=مهنة التعليم] في الوقت نفسه، ليس شيء بين أعمال الناس وصناعاتهم أجمل منها، ولو عدت مرة ثانية للحياة –لا سمح الله– لما اخترت إلا أن أكون معلماً، وقد أختار أن أكون معلماً للأحداث، فإن معاشرة الأحداث لذيذة وجميلة."[28] لا بد أن هذا الإحساس بالانتشاء بسبب ممارسة التعليم مما يستحق الدرس والتدبر والتفكير لأن فقدان دافعية المعلم تجاه التعليم هذه الأيام ربما كانت أحد الأسباب العميقة لفقدان التلاميذ للدافعية. فهذه أشياء معدية دون شك.

15. كان السكاكيني مؤمناً بأن الطالب قادر على التعلم بنفسه، وأن دور المعلم هو معاونة التلميذ وليس تلقينه. وقد كان الرجل واعياً تماماً بأبعاد موقفه هذا وما يترتب عليه، ومدركاً له إدراكاً واضحاً دفعه للقول: "وإني أشكر الله أني أول من نادى في هذه البلاد بتحرير التلميذ، ولم أزل منذ توليت عملي أنادي بتحرير التلميذ وبناء تربيته على إعزازه لا إذلاله."[29]ومن الواضح هنا أننا في مواجهة فكر "نهضوي" متفائل بقدرة الإنسان بوصفه كائناً عاقلاً وخيراً وحراً.

خلاصة:

وانسجاماً مع ما سبق نؤكد هنا على أن السكاكيني أنفق حياته منشغلاً في بناء نظام تعليمي يحقق الصحة الجسدية والنفسية، ويحقق نماء القدرات العقلية، ويسمح بتفتح ملكات الفرد وطاقاته على نحو حر بحيث يكون كائناً عاقلاً شجاعاً وحراً وقادراً على الإسهام إيجابياً في حياة أمته والبشرية. ولم يكن السكاكيني ليهاب التضحية ب "هيبة" المعلم والمدرسة في سبيل بناء شخصية الطفل المتعلم الإنسان الطيب العاقل الذكي والحر. لا يهم أن تذهب كل القواعد إلى حال سبيلها من أجل

تحقيق الغايات الأهم المتصلة بتحرر عقل الفرد وروحه وبناء فكره وذكائه وقيمه وأخلاقه. الإنسان المتكامل الإنسانية يستحق أن نضحي بنظام الامتحان والانضباط الصفي وقواعد الحضور والغياب، إذ لا شيء يعدل عقل التلميذ وحريته وأخلاقه. بهذا المعنى يمكن التفكير بأن السكاكيني كان تربوياً يضع انعتاق التلميذ روحاً وعقلاً وجسداً أهم غاية ينبغي السعي من أجلها.

---

[1] جهاد أحمد صالح، الرواد المقدسيون: خليل السكاكيني، الاتحاد العام للكتاب والأدباء الفلسطينيين، رام الله، 2010. ص1

[2] فوزي الأسعد، خليل السكاكيني،مكتبة الجمعية العلمية، نابلس، 1994. أنظر: ص3

[3] المرجع نفسه. أنظر: 6-7

[4] المرجع نفسه، ص 7

[5] المرجع نفسه، أنظر:8-9

[6] المرجع نفسه، أنظر: ص 43.

[7] المرجع نفسه، انظر: 10-11

[8] المرجع نفسه، ص 36

[9] المرجع نفسه، ص 37

[10] المرجع نفسه، الصفحة نفسها

[11] جهاد صالح، سبق ذكره، ص 18

[12] المرجع نفسه، ص 21

[13] يوسف أبوب حداد، خليل السكاكيني، جمعية الصوت، الناصرة، ص 196 1985

[14] المرجع نفسه أنظر:194-196

[15] المرجع نفسه. أنظر: 32-33

[16] نواف عبد حسن، خليل السكاكيني بين الوفاء والذكري، مركز إحياء التراث العربي، الطيبة، 1987. أنظر: 74-76

[17] المرجع نفسه، ص 76

[18] المرجع نفسه، ص 77

[19] يوسف حداد، سبق ذكره. أنظر: ص 215

[20] رؤى تربوية، العدد الثالث. مركز القطان، رام الله، مقتبسات من أقوال المربي خليل السكاكيني ص 50

[21] أنظر المرجع نفسه الصفحة نفسها

[22] المرجع نفسه، والتشديد من عندنا

[23] المرجع نفسه، ص 51

[24] النقاط من 7-10، أنظر يوسف حداد: 204-206

[25] المرجع نفسه، ص 51

[26] جهاد صالح، سبق ذكره. أنظر: 44-45

[27] المرجع نفسه. أنظر: ص 45

[28] الأسعد، ص، 39.

[29] نواف عبد حسن، خليل السكاكيني بين الوفاء والذكري، مركز إحياء التراث العربي، الطيبة، 1987 ص 73